﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا
مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا
كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الدُّخان: 1 - 8]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

زيادة التّبيان؛ لإقامة الحجَّة بالبرهان، ورفعة مكانة القرآن

لمّا أُشير في حم السَّجدة، وحم الشّورى إلى تنزيل القرآن، وتفصيله، وكونه قرآنًا عربيًّا، وتعلَّق الكلام بعد هذا بعضه ببعض؛ افتتح تعالى حم الدُّخان بما يُكمل ذلك الغرض، وهو التعريف بوقت إنزال القرآن العظيم إلى السماء الدُّنيا، وجعل لهذا الوقت أفضليَّة؛ تعظيمًا وتشريفًا[1] ثمَّ بيَّن سبحانه السبب في إنزاله فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[2]، وبيَّن كذلك أنَّه قد أرسل رسوله بمهمَّة الرِّسالة العظمى رحمةً بهم؛ فهو السَّميع العليم ربُّ السماوات والأرض وما بينهما لا إله إلا هو يحيي ويميت ربُّ السامعين، وربُّ آبائهم الأولين، وبأنَّ هذه هي الحقيقة الناصعة إذا كان السامعون يريدون المعرفة واليقين[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾: أصل (برك) يدلُّ على ثبات الشَّيء[4]، مأخوذ من البَرْك: صدر البعير، ويقال له بِرْكة، وبَرَك البعير يبرُك بروكًا: ألقى بَرْكَه واستناخ، واعتبر منه معنى الثَّبات واللُّزوم، فقيل: ابتركوا في

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 3.
(2) المراغي، تفسير القرآن: 25/ 120.
(3) محمد دروزة، التفسير الحديث: 4/ 535.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برك).

الحرب؛ أي: ثبتوا ولازموا موضع الحرب[1]، فكل شيء ثبت وأقام فقد بَرَك، وسُمِّي محبس الماء من حوض يُحفر في الأرض ونحوه بِرْكة؛ لأنَّ الماء ثبت وأقام فيه، وجمعه: بِرَكٌ، والبَرَكة مأخوذة من معنى الثَّبات واللُّزوم، فهي: ثبات وإقامة الخير، ثم خُصَّت البَرَكة بثبوت الخير الإلهيِّ في الشَّيء، والبركة: النَّماء والزِّيادة، والكثرة في كلِّ خير، ويكون المبارَك على هذا المعنى: ما يأتي منه الخير الكثير[2]، ومعنى ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ في الآية أي: ليلة موضع الخيرات الإلهيَّة، لما فيها من أصول الخيرات الثّابتة الدُّنيوية والدِّينية[3].

2) ﴿مُنذِرِينَ﴾: أصل (نذر) يدلُّ على التَّخويف والتَّحذير مما يُخشى منه[4]، والإنذار: إخبار وإبلاغ مع تخويف وتحذير، ومنه النَّذير بمعنى المُنذِر، والنَّذير بمعنى الإنذار، وجمعه نُذُر[5]، والإنذار الإعلام بالشَّيء يُحذَّر منه، والمُنذِر هو المبلغ والمُعلِم بهذا الشَّيء، والمُنذِر كذلك الرَّسول أو النَّبيُّ يبلِّغ الأمرَ العظيم من شأن الآخرة يخوِّفهم ويحذِّرهم منها[6]، وقوله: ﴿مُنذِرِينَ﴾، أي: مخوِّفين عقابنا في تلك اللَّيلة[7].

3) ﴿يُفْرَقُ﴾: أصل (فرق) يدلُّ على التَّمييز والفصل بين شيئين[8]، والفَرْق: خلاف الجمع، وهو الفصل بين الشيئين، سواء كان بفصل يدركه البصر أو بفصل تدركه البصيرة، وقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: 106]؛ أي: بيَّنّاه وأحكمناه وفصَّلناه، مِن فَرَق يفرُق، ومِن فرَّق يفرِّق: أنزله الله ﷻ جملة إلى السَّماء الدُّنيا، ثمَّ نزل على النَّبي ﷺ في عشرين سنة، ثم فرَّقه في التَّنزيل ليفهمَه النّاس[9]، والفُرْقان: القرآن، وكل ما فُرِّق به بين الحقِّ والباطل فهو فرقان، ومعنى قوله تعالى: ﴿يُفْرَقُ﴾، أي: يُفصَل ويُقضَى[10].

---

(1) الراغب، المفردات: (برك).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (برك).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (برك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نذر).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نذر).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نذر).
(7) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 4/ 116.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فرق).
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (فرق).
(10) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 227، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/ 128، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.

4) ﴿مُرْسِلِينَ﴾: أصل (رسل) يدلُّ على الانبعاث والامتداد، وهو يقابل الإمساك[1]، فالرَّسْل: الانبعاث على التُّؤَدة، فيقال: ناقة رَسْلَة: سهلة السَّير، وشعر رَسل: مسترسل، واسترسل الشَّعر: صار سَبْطًا، واسترسل إلى فلان؛ أي: انبسط واستأنس، وترسَّل في الأمور والقراءة والمنطق: اتَّأد وتمهَّل وتوقَّر وتثبَّت[2]، ومنه الرَّسول: المنبَعِث، والذي يتابع أخبار الذي بعثه، ويتصوَّر منه الرَّفق تارة، فيقال: على رِسلك، إذا أمرته بالرِّفق، وتارة الانبعاث، فاشتق منه الرَّسول، والإرسال: التَّوجيه، وقد يكون بتسخير، كما هو في إرسال الرِّيح، وقد يكون ببَعْثِ مَنْ له اختيار، نحو إرسال الرُّسل، ورسل الله تارة يراد بها الأنبياء، وتارة يراد الملائكة[3].

5) ﴿مُّوقِنِينَ﴾: أصل (يقن) من يقن الماء، إذا ثبت وسكن[4]، واليقين: العلم وزوال الشَّك وإزاحته وتحقيق الأمر، وهو فوق المعرفة والدِّراية، واليقين نقيض الشَّك، والعلم نقيض الجهل، يقال: علمٌ يقين ولا يقال معرفةٌ يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نـــزَل أحسـنَ الحديث بأفضل الليـالي رحـمةً لتوحيد الكبير المتعالي

في ابتداء السّورة الكريمة بالحروف المقطَّعَةِ بيان لمعجزة الله الخالدة الَّتي لا نستطيع أن نأتي بشيء منها - برغم أنَّها من جنس حروفنا وكلامنا الَّذي نتكلَّمُ به - ألا وهي القرآنُ الكريمُ المقْسَمُ به في هذه الآيات والمخْبَرُ عنه بأنَّه الموضِّحِ لكلِّ ما يحتاجُهُ الإنسانُ من أمور الدِّين والدُّنيا، وبأنَّه المنزَّل في ليلة مباركة هي ليلة القدر؛ لأجل تحذير

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (رسل).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رسل).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (يقن).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (يقن).

النّاسِ وإرشادهم إلى ما ينفعهم ويَضُرُّهم لتقومَ حُجَّةُ الله بذلك على عباده، وفي هذه الليلة يُفْصَلُ كلُّ أمْرٍ محْكَمٍ مُشْتَمِلٍ على الحكمة، حال كونه صادرًا من عند الله الذي تَكَفَّلَ بإرسال الرُّسُلِ رأفةً منه سبحانه بخلقِه، فهو السَّميعُ لمن تَضَرَّعَ إليه، العليمُ بجميع أحوالِ خَلْقِه، وهو سبحانه خالقُ السَّماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات إنْ كنتم أيُّها المشركون على يقين في إقراركم بذلك حين تُسْألونَ، وهو سبحانه الإله الحقُّ الَّذي لا معبودَ سِواهُ، كما أنَّهُ المتصرِّفُ وحده بالإحياء والإماتة وهو خالقكم وخالق آبائكم الأوَّلين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستفتاح بالأحرف المقطَّعَة:

الافتتاح بالحروف المقطَّعة دليل إيجاز، وآية إعجاز

افتُتِحَت هذه السّورةُ بحرفين مِن الحروف المقطَّعة التي تُستفتَحُ بها كثيرٌ مِن سوَر القرآن؛ لبيان إعجازه، حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْق عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروف العربيَّة التي يَتحدَّثونَ بها[2].

فقوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ هما حرفان من حروف الهجاء الذي منه كلامهم، وهُم مع ذلك يعجزون عن الإتيان بمثله[3]، فجاء بها الخطاب القرآنيُّ في أوائل بعض السّور للتَّحدِّي والتَّعجيز، والتَّنبيه إلى أنَّ هذا القرآن مِن عند الله ﷻ[4]، فكأنَّه سبحانه يقول للمكذِّبين: هذا هو القرآن، مؤلَّف مِن كلمات وحروف هي مِن جنس ما تتخاطَبون به، فإن كنتم في شَكٍّ في كونه مِن عنده تعالى فأتوا بسورة مِن مثله، فعَجزوا وانقلبوا خاسرين، وثبت أنَّ هذا القرآن مِن عند الله ربِّ العالمين[5].

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 227 - 228.
(2) الدرر السنية، التفسير المحرر: 32/ 325.
(3) الإبياري، الموسوعة القرآنية: 11/ 163.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 115.

بلاغة الإنشاء باستخدام أسلوب القَسَم:

قسم الله العظيم دليل قاطع على الانزال في ليلة القدر

في الإنشاء بأسلوب القسم في هذا الموضع بيان لعظمة القرآن مِن حيث إنّ الله العظيم لا يقسِم إلّا بكلٍّ عظيم، وأنَّ القسَم الظّاهر الصَّريح في الآية الكريمة بواو القسَم: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ الغرضُ منه توكيد الكلام وتقويته، وهو إنزال القرآن في ليلة القدر المبارَكة.

القرآنُ دليلُ ثبوتِ القرآنِ، وهذه غاية التَّعظيم والبيان

ثالثًا: أنَّه أقسَم به عليه، فكان القرآن هو القسَم وهو جواب القسَم، كأنَّه لمّا أقسم على إنزاله لتقوية هذا المعنى ردًّا على المنكِرين لإثبات أنَّه الثّابت الذي لا ريب فيه - أقسم به على ذلك؛ فكان القرآنُ نفسُه دليلَ ثبوت القرآن[1].

وهذا من بدائع الإقسام من حيث كون المقسَم به والمقسَم عليه من وادٍ واحدٍ؛ وذلك لأنَّ المقصودَ مِن المقسَم عليه - وهو قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ - تعظيمُ القرآن بأنَّه كثير البركة حتَّى جعل اللَّيلة التي أنزل فيها مبارَكَة بنزوله فيها، فلمّا أكَّده بجعل القرآن مقسَمًا به فقد أثبت عظمَتَه بعظمَتِه، فكانا من وادٍ واحدٍ[2].

القرآن مُقسَمٌ به عليه، وهو مبينٌ عن نفسه؛ وهذا غاية التَّعظيم

معنى التَّعريف في (الكِتابِ)،:

يجوز في (ال) التي في (الكِتابِ) أن تكون للجنس، أو للعهد؛ إذ يجوز أن يكون المراد بالكتاب هاهنا: جنس الكتب المتقدِّمة التي أنزلها الله على أنبيائه ﷺ، ويجوز أن يكون: اللَّوح المحفوظ، ويجوز أن يكون المراد به القرآن المعهود - وهو الرّاجح - وبهذا التَّقدير فقد أقسم بالقرآن على أنَّه أنزل القرآن في ليلة مباركة، وهذا النّوع مِن الكلام يدلُّ على غاية تعظيم القرآن، فقد يقول الرَّجُل إذا أراد تعظيم رَجُل له حاجة إليه: أستَشفِعُ بكَ إليك، وأقسِم بحقِّك

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 654.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 494.

عليك[1]، وعليه فقد أقسم الله جلَّ ثناؤه بهذا الكتاب، أنَّه أنزله في ليلة مباركة[2].

دلالة وصف الكتاب بـ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾:

أمّا عن وصف الكتاب بـ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾، فالمُبين هو المُشتَمِل على بيان ما بالنّاس حاجة إليه في دِينهم ودُنياهم، مِن حلالٍ وحرام وغير ذلك مِن الأحكام[3]، وهو إمّا مِن الفعل المتعدِّي (أبانَ)؛ أي: يُبين الهُدَى والشَّرع ونحوه، وإمّا مِن غير المتعدِّي؛ أي: هو مبين في نفسه[4].

حاجة الناس الى نور القرآن وهداه في دينهم ودنياهم لا تدانيه حاجة

فوَصَفَه بكونه مبينًا – وإن كانت حقيقةُ الإبانة لله تعالى – لأجْل أنَّ الإبانة حصَلت به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [النَّمل: 76] وقال في آية أخرى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3] وقال ﷻ: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٥﴾ [الرّوم: 35] فوَصَفَه بالتَّكلُّم إذ كان غايةً في الإبانة، فكأنَّه ذو لسان ينطق، والمعنى فيه المبالغةُ في وصفه بهذا المعنَى[5]، وهو من قبيل إسناد الحكم إلى سببه لأنَّ المبين في الحقيقة هو الله تعالى[6].

كما أنَّ القسَم الذي سبق الإخبار بالنُّزول في ليلة مباركة تضمَّن ثبوت ذلك النُّزول ابتداءً؛ وإلّا فلم يكن ليصلح مقسَمًا به، فكأنَّ نزول القرآن وكونه مِن عند الله أمرٌ ثابت سابِق للإخبار بذلك في الآية؛ ولهذا المعنى ناسب وصفه بـ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ فقد أبان القرآن عن نفسه كما أبان للنّاس النَّجدين وعاقبة كلٍّ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 652.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 7، والماوردي، النكت والعيون: 5/ 244.
(3) الخازن، لباب التأويل: 4/ 116.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 68.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 652.
(6) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 494.

تعيين المقسم عليه في قوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾:

المُنزل من الله عظيم لا يبلُغ منزلته كتاب

في قول الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ وجوهٌ مِن الاحتمالات وفاق ما يناسب الجملة من تقدير؛ كأن يكون: هذه حم والكتابِ المبِين؛ كقولك: هذا زيدٌ والله، ويكون الكلامُ قد تَمَّ عند قوله: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾، فكأنَّ التَّقدير: والكتابِ المبينِ هذه حم، ثمَّ يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ استئنافًا.

أو يكون الكلام قد تمَّ عند قوله: ﴿حمٓ﴾ ثمَّ يقال: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾، والتَّقدير: والكتابِ المبين إنّا أنزلناه، غير أنَّ بعض النَّحويِّين أنكره من حيثُ إنَّه صفةٌ للمُقسَم به ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾، ولا تكون صفةُ المُقسَم به جوابًا للقَسَم، وأجازه بعضهم من حيث كونه مِن باب الإقسام بالشَّيء على نفسه مبالغة في تعظيمه كما تقدَّم.

أو يكون التَّقدير: و ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾، فيكون ذلك في التَّقدير قَسَمَيْن على شيء واحد[1].

ويجوز جعلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ جوابَ القَسَم الذي هو ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ فالتَّقدير: والكتابِ المبين إنّا كنّا منذرين، ويكون الوقف على ﴿مُنذِرِينَ﴾، ويُبتَدَأ مِن قوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾، على أنَّ قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ اعتراض بين القَسَم وجوابه يتضمَّن تفخيم الكتاب[2].

علَّة فصل قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾:

من وجوه عظمة القرآن بيان شرف الزَّمان الذي أُنزل فيه

وفاقَ ما فُصِّلَ بيانه في النُّكتة السّابقة فإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يصحُّ فيه وجهان:

فإمّا أن يكون استئنافًا ابتدائيًّا - على أنَّ تقدير القسَمَ وجوابه: هذه حَم وحقِّ (الكِتابِ المُبِينِ) - للشُّروع في بيان أوجه عظمة القرآن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 651.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 68، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 125.

ببيان شرف الزَّمان الذي أُنزل فيه، وإمّا أن يكون هو بذاته جواب القَسَم؛ فلا جرم فُصِل عن سابقه لذلك.

نكتة توكيد جملة جواب القسَم بـ(إنَّ):

تأكيدُ المُنزل ردٌّ على المخاطَب المنكِر

أُكِّد جواب القسَمَ بـ(إنَّ)؛ لزيادة توكيد الخبر أنَّ القرآنَ مِن تنزيل الله سبحانه[1] والعناية به، ولأجل استبعاد القوم وإنكارهم إنزال القرآن وقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: 91] فلأجل هذا أُكِّد جواب القَسَم، وأُتي به في مظهر العظمة: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾[2]، فهو ردٌّ على المنكرين، فمتى وُجِّه الخطاب إلى منكِر حسُنَ توكيده بأكثر مِن مؤكِّد؛ لذلك جيء بالقَسَم، وبحرف التَّوكيد.

دلالة التَّعبير بنون العظَمَة في ﴿إِنَّآ﴾:

تعظيم الإنزال يناسبُ عظمة الحدث

تدلُّ النّون على التَّعظيم كما هو ظاهر مِن تسميتها بنون العظمة، وإنَّما يُعبَّر بها للدَّلالة على أنَّ الفعل المسنَد إليها عظيم، وهو هنا إنزال القرآن الكريم في ليلة مبارَكة، ولمّا كان إنزال القرآن هو الحدث الأعظم ناسبه إسنادُ الفعل إلى ضمير العظمة.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ﴾؛ أي: بما لنا مِن العَظَمَة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: الكتاب[3]، فبدأ الله ﷻ بتعظيم الألوهيَّة، وتعظيم كتابه الحكيم، ورسوله الكريم ﷺ؛ إذ أتى بالصِّيغة المنبِّهة على الجلال والكبرياء، وهي: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾[4].

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليّ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، ودلالة مجيئه ماضيًا:

أُنزِل أفضل الكلام في أفضل اللَّيالي والأيّام، على أفضل الأنام، بلُغة العرب الكرام

أوثر التَّعبير بالمسند الفعليِّ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ لتقوية الحُكم وتوكيده، والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليِّ تقويةَ الحُكم هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعل ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ قد أُسنِد مرَّتين: مرَّة إلى اسم إنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 159.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 2.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 2.
(4) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 198 - 199.

(نون العظَمَة)، ومرَّة إلى ضميره، فهو بمثابة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة (أنزلنا القرآن، أنزلنا القرآن)، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن[1]، أمّا عن مجيئه بصيغة الماضي فللدَّلالة على توكيد وقوع الحدث وانقضائه، وهذا كلُّه ممّا يناسب المقام مِن الحديث عن ثبوت القرآن، والرَّدِّ على المنكِرين والمشكِّكين.

سرُّ إيثار التَّعبير بالإنزال دون التَّنزيل:

صيغة الإنـزال تـناسب معنى نـزول الـقـرآن دفعة واحدة

أوثر التَّعبير بالإنزال دون التَّنزيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ لأنَّ الفرق بين الإنزال والتَّنزيل أنَّ التَّنزيل مختَصٌّ بالنُّزول على سبيل التَّدريج، أمّا الإنزال فمختَصٌّ بما يكون النُّزول فيه دفعةً واحدة[2]؛ أي: كاملًا جملة واحدة مِن اللَّوح المحفوظ إلى السَّماء الدُّنيا، ثمَّ كان جبريل ﷺ ينزِّله على النَّبيِّ ﷺ نجومًا؛ أي: مفرَّقًا في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع[3]، ولو قال: (نَزَّلْنَاهُ) لكان يعني: نزَّلناه منجَّمًا[4]، وفي معنى هذا الإنزال قولان: **أحدهما:** أنَّه أُنزل جميع القرآن في ليلة القدر إلى السَّماء الدُّنيا، ثمَّ كان جبريل ﷺ يأتي به شيئًا فشيئًا إلى أن أُنزل جميعُه، **والقول الثّاني**: أنَّ المراد بالإنزال هاهنا ابتداء الإنزال، ومعنى قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر[5]، والقولان متقاربان؛ فإنَّ كلَّ آية أو آيات تنزل مِن القرآن فهي منضمَّة إليه انضمام الجزء للكلِّ، ومجموع ما يبلغ إليه الإنزال في كلِّ ساعة هو مسمَّى القرآن إلى أنْ تمَّ نزولُ آخر آية من القرآن[6]، وعلى كلٍّ: فإنَّ هذه الصِّيغة تناسب المقام، وتقوِّي معنى الحديث عن ثبوت القرآن.

---

(1) حسن عبد الرازق، البلاغة الصافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغي، ص: 125.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 5/ 254، وابن عادل، اللباب: 3/ 280.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 343.

(4) الهلال، الثري الجامع: 10/ 418.

(5) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 121، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 111.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 277.

توجيه عود الهاء في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾:

الهاء في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ تعود على الكتاب المبين المقسَم به، وقد تقدَّم بيان أوجه التَّأويل فيه، فإن أريد به القرآن فالضَّمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ عائدٌ عليه؛ أي: أنزلنا القرآن في ليلة مباركة[1]، وإن أُريد به اللَّوح المحفوظ فقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلنا بعض ما فيه، وهو القرآن أيضًا[2]، وإن أُريد به جنس الكتب الإلهيَّة المنَزَّلة فالضَّمير عائد على الوحي أو جبريل، والقرآن داخلٌ فيه ضمنًا، والظّاهر الأوَّل[3].

الهاء كناية عن القرآن، الذي ابتُدئ إنزاله في ليلة القدر من رمضان

معنى ظرفيَّة ﴿فِى﴾:

الأصل في معنى ﴿فِى﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ يتضمَّن معنيين: الأوَّل: إنزال القرآن، والثّاني: وقوع ذلك الإنزال في اللَّيلة المباركة[5]، فهي ليلة مباركة؛ لأنَّها كانت ظرفًا حاويًا للرَّحمة المنزَّلة مِن السَّماء إلى الأرض، وهذه الرَّحمة هي القرآن الكريم[6].

أعظم اللَّيالي بركة ما كوشف فيها بحقائق الأشياء، واتَّصلت فيها الأرض بالسَّماء

نكتة تنكير ﴿لَيْلَةٍ﴾ ودلالة وصفها بـ ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾:

نُكِّرت ﴿لَيْلَةٍ﴾ للتَّعظيم، ووُصفت بـ ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ تنويهًا بها وتشويقًا لمعرفتها؛ فهذه اللَّيلة هي اللَّيلة التي ابتُدئ فيها نزول القرآن على خاتم المرسلين محمَّد ﷺ في الغار من جبل حراء في رمضان، وثبت أنَّ الله سبحانه جعل لنظيرتها مِن كلِّ سنة فضلًا عظيمًا لكثرة ثواب

لا تُدانَى ليلةُ إنزال القرآن تعظيما، ولا تُسامَى تشريفًا وتكريما

(1) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: 9/ 397.
(2) الصاوي، حاشية على الجلالين: 4/ 60.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 87، والهرري، حدائق الرّوح والريحان: 26/ 343.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(5) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 497.
(6) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 182.

العبادة فيها في كلِّ رمضان؛ كرامةً لذكرى نزول القرآن، وابتداءِ رسالة أفضل الرُّسل محمَّد ﷺ إلى النّاس كافَّة، فذِكرُ فضل الوقت كناية عن فضل القرآن بذكر فضل الوقت الذي ابتُدِئَ إنزاله فيه[1]، ولله تعالى أن يفضِّل بعضَ الأزمنة على بعضٍ، وبعضَ الأمكنة على بعضٍ، وبعضَ الرُّسل على بعضٍ، لا رادَّ لفضله، ولا معقِّب لحُكمه[2].

وقوله تعالى: ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ أي: كثيرة الخير لما يتيح الله فيها مِن الأمور التي يتعلَّق بها منافع العباد في دينهم ودُنياهم، ولو لم يوجَد فيها إلّا إنزال القرآن وحدَه لكفى به بركة[3]، وإنَّما وُصِفت اللَّيلة بالبركةِ لأنَّ نزول القُرآنِ مستتبِعٌ للمنافع الدِّينيَّة والدُّنيويَّة بأجمعها، أو لِما فيها مِن تنزُّل الملائكة والرَّحمة، وإجابة الدَّعوة، وقَسْم النِّعمة، وفَصْل الأقضية، وفضيلة العبادة، وإعطاء تمام الشَّفاعة لرسول الله ﷺ، وإنزال البركات والخيرات والثَّواب حتَّى قيل إنَّ ماء زمزم يزيدُ في هذه اللَّيلة زيادةً ظاهرةً[4].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾:

الإنـــذار عـلّـةُ الإنزال

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾؛ لأنَّه استئناف بيانيٌّ يبيِّن المقتضِي للإنزال؛ والحكمة منه، كأنَّه قيل: إنّا أنزلناه لأنَّ مِن شأننا الإنذارَ والتَّحذيرَ مِن العقاب، والتَّبشيرَ بالجنَّة؛ أي: وإنَّما أنزلناه لأنّا كنّا معلِّمين النّاسَ ما ينفعهم، فيعملون به، وما يضرُّهم فيجتنبونه لتقوم حُجَّة الله على عباده، أو فُصِلت لأنَّها جوابٌ للقَسَم الذي هو: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ على أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ اعتراضٌ أو جوابٌ ثانٍ بغيرِ عاطفٍ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 277.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 116.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 270.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 245، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 126، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 58.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 58، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 111، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 344.

بلاغة تكرار التَّوكيد بـ (إنَّ):

تـأكـيـد الإنـذار
اسـقـاط لـعـذر
التشكّك والإنكار

حرف (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ يجوز أن يكون للتَّأكيد ردًّا لإنكارهم أن يكون الله أرسل رسلًا للنّاس لأنَّ المشركين أنكروا رسالة محمَّد ﷺ بزعمهم أنَّ الله لا يُرسل رسولًا من البشر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 91]، فكان ردُّ إنكارهم ذلك ردًّا لإنكارهم رسالة محمَّد ﷺ، فتكون جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ مستأنَفَةً[1].

ويجوز أن تكون (إنَّ) لمجرَّد الاهتمام بالخبر، فتكون مُغنِيَةً غناءَ فاءِ التَّسبُّب فتفيد تعليلًا، فتكون جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ تعليلًا لجملة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلناه للإنذار لأنَّ الإنذار شأننا، فمضمون الجملة عِلَّة العِلَّة وهو إيجاز[2].

نكتة التَّعبير بالكون الماضي:

مـن أجـلِّ نِعَـم
الـلـه تـعـالى
عـلى الـعـباد أن
بـيَّن لـهـم سُبُـل
الهُدَى والرَّشاد

تدلُّ كلمة (كان) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ على الاستمرار والدَّوام، لإفادة أنَّ سنَّة الله تعالى التي عوَّد عليها عباده هي أنَّه لا يتركهم هَمَلًا بلا بشارة ولا إنذار، بل بيَّن لهم الذي يتَّقون، فكأنَّه قال: مِن عادتنا الإنذار والتَّخويف[3]، وإن الإنذار ثابت في سنن الخلق دائم لا ينفك عن الناس شكلا من الاحتراز، وتجنّب الزيغ عن سبل الرشاد والهداية.

وهذا مِن أعظم نِعَم الله تعالى على العباد: أن بيَّن لهم سبل الهدى والرَّشاد، وحذَّرهم قبل أن يأخذهم بعقاب، وأمهلهم حتَّى يتوبوا إليه ويُنيبوا، فغفر لهم الذنب، وقبل منهم التَّوب، وضاعف لهم الأجر، فما أعظمه من ربٍّ رحيم!.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 3.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 3، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 372، والصاوي، حاشية على الجلالين: 7/ 60.

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿مُنذِرِينَ﴾ مادةً وصيغةً:

التخويف سبيلٌ للإنابة

تدور معاني الإنذار حول التَّخويف أو التَّخوُّف، والإبلاغ، ولا يكاد يكون إلّا في التَّخويف مِن مكروه سيقع، ويقع على كلِّ شيء فيه إنذار، إنسانًا كان أو غيرَه[1]، والمنذِر: الذي يخبر بأمر فيه ضرٌّ لقصد أن يتَّقيَه المخبَر به[2]، فقوله تعالى: ﴿مُنذِرِينَ﴾؛ أي: مخوِّفين، ذلك أنَّ النّاس إذا طال عليهم الأمد، وتتابعت عليهم النِّعَم، وألِفوا العافية، مالوا إلى الدُّنيا فنسوا حظًّا ممّا ذُكِّروا به، فقست قلوبهم، فعند ذلك يحسن أن يُخَوَّفوا حتَّى يرتدعوا ويرعووا ويُنيبوا إلى ربِّهم ويُسلِموا له مِن قبل أن يأتيهم العذاب بغتة وهُم لا يشعرون!

وعُبِّر بصيغة اسم الفاعل للدَّلالة على الثُّبوت والدَّوام؛ أي: من عادة الله سبحانه في خلقه أن ينذرهم ويحذِّرهم ويخوِّفهم.

نكتة حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿مُنذِرِينَ﴾:

الإنذار بالقرآن تخويف للعاصي ورشادٌ لأهل الإيمان

حُذِف مفعول ﴿مُنذِرِينَ﴾ لدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ عليه؛ أي: منذرين المخاطَبين بالقرآن[3]، أو منذرين بالرُّسل مِن الضَّلال[4]؛ أو منذرين بالقرآن مَن عصى الله[5].

ولا يخفى ما أدّاه الحذف مِن مُحسِّن الرِّعاية على الفاصلة، فتعانق حُسنُ المعنى مع جمال اللَّفظ وروعة النَّظم في سبك بديع.

نكتة الاقتصار على الإنذار دون البشارة في ﴿مُنذِرِينَ﴾:

مِن مبادئ الشَّريعة أنَّ دفع المضارِّ مقدَّمٌ على جلب المصالح

اقتُصِر على الإنذار في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ مع أنَّ القرآن منذِر ومبشِّر؛ لأجل الاهتمام بمقام الإنذار؛ لأنَّه مقتضَى حال جمهور النّاس يومئذٍ، ويدلُّ على ذلك سبب نزول السّورة وما

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نذر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 245.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 94.

عالجته موضوعاتُها، كما أنَّ الإنذار يقتضي التَّبشير لمَن انتذر، فكأنَّه دلَّ عليه، وهذا غاية الإيجاز[1]، فضلا عمّا فيه من الاكتفاء[2].

بلاغة اللَّفِّ والنَّشر في الآية:

في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ لفٌّ بديع بين معنيي: تعيين إنزال القرآن، واختصاص تنزيله في ليلة مبارَكة.

أُنزِل القرآن للإنذار والتَّخويف، وخُصَّ بليلة القدر؛ لأنَّها مَفرِق كلِّ أمر حكيم شريف

وتعليل إنزال القرآن بجملة: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾؛ يعني أنَّ الحكمة في إنزال هذه السّورة أنَّ إنذار الخلق لا يتمُّ إلّا بإنزال القرآن، فكأنَّه قيل: أنزلناه لأنَّ مِن شأننا الإنذارَ والتَّحذير مِن العقاب.

أمّا تعليلُ تنزيله في ليلة مبارَكة فبجملة ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾؛ يعني أنَّ الحكمة في تخصيص هذه اللَّيلة بإنزال القرآن هو أنَّ هذه اللَّيلة يُفرَق فيها كلُّ أمر حكيم، ولا جرم أنَّ إنزال القرآن من أجلِّ هذه الأمور وأحكمها، والمعنى الثّاني معتنقٌ بالأوَّل غير مستقلٍّ بنفسه فأعجِبْ بِنشرٍ فيه لفٌّ[3]!

توجيه متشابه النَّظم مع قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾:

تشابه قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ مع قوله في مطلع سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر: 1] في وصف اللَّيلة، فقد وُصِفت في الدُّخان بأنَّها ﴿لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، ووُصِفت في القدر بأنَّها ﴿لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر: 1]، يُزادُ على ذلك أنَّ آية الدُّخان وقعت ثالثة في سورتها، أمّا آية القدر فكانت الأولى في سورتها[4]،

محور سورة القدر هو تعظيم اللَّيلة (الزَّمان)، ومحور سورة الدُّخان هو تعظيم القرآن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 344.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 270، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 654، والطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 192 - 193، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.

(4) مع ملاحظة أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ هو بعض آية، وتمامها: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾، أمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر: 1] هو آية بتمامها.

ووجه هذا التَّشابه والاختلاف: أنَّ محور سورة القدر هو بيان فضل تلك اللَّيلة بذكر ما يقع فيها مِن أمور كنزول الملائكة وفيها جبريل ﷺ، وأنَّها خير مِن ألف شهر، وأنَّها سلام مِن الشُّرور حتَّى مطلع الفجر، أي: في ليلة التَّقدير لجميع أمور السَّنَة، والتَّقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[1]، ولمّا كان المراد في سورة القدر بيان فضل اللَّيلة نفسها ناسب - أوَّلًا - أن تُفتَتَح بها السّورة لينبني ما بعدها عليها، وناسب - ثانيًا - أن تُضاف اللَّيلة إلى القدر الذي مِن معانيه: الشَّأن العظيم، وتأكيدًا لهذا المعنى جاء أسلوب التَّهويل والتَّعظيم في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾ [القدر: 2].

أمّا في سورة الدُّخان فالمحور هو بيان ما نزل في هذه اللَّيلة مِن وحي، وبيان مكانة هذا الوحي، ومِن ثَمَّ أُظهِر اسم الكتاب ليعود عليه الضَّمير في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وبُيِّنت العلَّة من هذا الإنزال، وهي النِّذارة بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، والإشارة إلى الرِّسالة بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، ثمَّ ذُكِر ما ينزل مِن السَّماء مِن العذاب جزاءً لمن أعرض عن ما نَزَل مِن السَّماء مِن وحي، فلمّا كان المراد في سورة الدُّخان بيان فضل الكتاب المبين الذي أُنزِل فيها، وما ترتَّب عليه من إنذار وبشارة، وبعث للرَّسول الكريم ﷺ ناسب وصفَ اللَّيلة بالبركة "أي: كثيرة البركات والخيرات"[2]؛ تنويهًا برفعة شأن ما نزل فيها مِن الوحي والخير، فهي ليلة نزل فيها تشريع مبارَك وذِكرٌ مبارَك، مَن اتَّبعه نجا، ومَن أعرض عنه مسَّه العذاب، وناسب أيضًا أن تأتي الآية ثالثةً بعد القسَم بالكتاب في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

"ولا ريب أنَّها كانت أبرَكَ ليلةٍ وأيمنَها على العالمين، بتنزيل ما فيه الحكمة والهدى، والنَّجاة مِن الضَّلال والرَّدى"[3]، "وكم لها مِن بركات للمسلمين في دِينهم، ولعلَّ تلك البركة تسري إلى شؤونهم الصالحة مِن أمور دنياهم!"[4].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾:

فُصِل قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 341.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 339.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 407.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 278.

عن تنكير ﴿لَيْلَةٍ﴾[1]، فكأنَّه قيل: لمَ اختُصَّت هذه اللَّيلة بإنزال القرآن فيها؟ فكان الجواب: إنَّما أنزلناه في هذه اللَّيلة المبارَكة؛ لأنَّ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: ذي حكمة بالغة[2]؛ فإنَّ كونَها مفْرِقَ الأمورِ المحكمة أو المتلبِّسة بالحكمة الموافقة لها يستدعِي أنْ ينزل فيها القرآنُ الذي هو مِن عظائمها[3]، ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة أخرى لـ ﴿لَيْلَةٍ﴾، وما بينهما اعتراض، فلا جرم فُصِلت عنها[4].

كونُ الليلة مفْرِقَ الأمورِ المحكمة يستوجب أنْ ينزل فيها القرآنُ الذي هو مِن عظائمها

معنى (في):

في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ الحرف (في) موضوع للدَّلالة على معنى الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة كانت هذه الظَّرفيَّة أم زمانيَّة، حقيقيَّة كانت أم مجازيَّة، هذا هو الأصل في معناه[5]، و"الهاء التي في قوله ﴿فِيهَا﴾ عائدة على اللَّيلة المبارَكة"[6].

كانت ليلة القدر وعاءً لفصل الأقضية إعلامًا لا تقديرًا، وإنزال القرآن إنذارًا وتبشيرًا

فالظَّرفيَّة تعني أنَّ هذه اللَّيلة زمانٌ لفصل الأقضية - بمعنى إعلام الحفظة بها وإلّا فهي مقضيَّة أزلًا قبل خلق السَّماوات والأرض بخمسين ألف عام كما صحَّ به النَّصُّ - فكانت هذه اللَّيلة لفصل الأقضية كالوعاء لحفظ الأشياء المهمَّة؛ "أي: جعل الله اللَّيلة التي أُنزل فيها القرآن وقتًا لإنفاذ وقوع أمور مهمّة مثل بعثة محمَّد ﷺ تشريفًا لتلك المقضيّات وتشريفًا لتلك اللَّيلة[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 111، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 278.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 58.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 58، والصاوي، حاشية على الجلالين: 7/ 60، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 653.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 8.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.

نكتة تقديم شبه الجملة على ما تعلَّق به في ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾:

ليلة إنزال القرآن الكريم مباركةٌ معظّمة

قُدِّم شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾ على ما تعلَّق به ﴿يُفْرَقُ﴾ لإفادة معنى الاختصاص، فإنَّ فصل القضاء، وفرق الأمور، وإنزال القرآن، كلُّ هذا إنَّما يقع ذلك في تلك اللَّيلة المبارَكة دون غيرها مِن الليالي، ولا يخفى ما في التَّقديم مِن معاني الاهتمام والتَّعظيم لهذه اللَّيلة، وفيه كذلك بيان "سبب تخصيص نزوله بتلك اللَّيلة، فقال: ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك اللَّيلة المبارَكة ﴿يُفْرَقُ﴾؛ أي: يُكتَب، ويُفصَل، ويُبَيَّن، ويُظهَر للملائكة الموكَّلين بالتَّصرُّف في العالَم ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ "[1]، فقدَّم ضميرها ليتَّصل بما قبله، ولينبني ما بعده عليه.

نكتة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿يُفْرَقُ﴾ مادّةً وصيغة:

ليلة إنزال القرآن وقتٌ لإنفاذ وقوع أمور مهمّة تشريفًا لها وللمقضيّات

الفرق تمييزٌ وتزييلٌ وانفصال بين شيئين يصل إلى العمق؛ كالفَرق في الشَّعر، وهو واصلٌ إلى المنبَت[2]، ومعنى ﴿يُفْرَقُ﴾: يُفْصَل ويُكتَب كلُّ أمرٍ يُراد قضاؤه في النّاس مِن أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم، مِن هذه اللَّيلة إلى ليلة القدر المستقبلة[3]؛ ولهذا يُسمَّى القرآن فرقانًا؛ أي: جعل الله اللَّيلة التي أُنزل فيها القرآن وقتًا لإنفاذ وقوع أمور مهمّة مثل بعثة سيد الأوَّلين والآخرين محمَّد ﷺ؛ تشريفًا لتلك المقضيّات وتشريفًا لتلك اللَّيلة[4].

وقد أوثر بناء الفعل ﴿يُفْرَقُ﴾ للمفعول لكون الفاعل معلومًا للمخاطَب حتى لا يحتاج إلى ذكره له؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: 28]؛ أي: خلق الله الإنسان ضعيفًا، فالذي يفرق كلَّ أمر حكيم هو الله تعالى، وأمّا صيغة المضارع

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 344.
(2) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فرق).
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 278.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.

فلإفادة أنَّ هذا الفَرْق مستمرٌّ في كلِّ ليلة توافق عدَّ تلك اللَّيلة مِن كلِّ عامٍ، ويحتمل أن يكون استعمال المضارع لاستحضار تلك الحالة العظيمة[1].

دلالة التَّعبير بالاسم الدّالّ على التَّعميم ﴿كُلُّ﴾:

أحصى لفظُ العموم كلَّ الأشياء، فأكثر في الدَّلالات واختصر في البناء

كلمة ﴿كُلُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يجوز أن تكون مستعمَلَة في حقيقة معناها مِن الشُّمول، وقد علم الله ما هي الأمور الحكيمة فجمعها للقضاء بها في تلك اللَّيلةِ، وأعظمُها ابتداءُ نزول الكتاب الذي فيه صلاح النّاس كافَّة، ويجوز أن تكون ﴿كُلُّ﴾ مستعمَلَة في معنى الكثرة، وهو استعمال في كلام الله تعالى وكلام العرب، نحو قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 23] فهو على إرادة التَّكثير والمبالغة لا الحصر، فقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: فيها تُفرق أمور عظيمة[2].

نكتة تنكير ﴿أَمْرٍ﴾ ودلالة وصفه بـ ﴿حَكِيمٍ﴾:

الأمر المُقضى عظيم، مختصٌّ بكلّ ما هو حكيم

نُكِّرت كلمة ﴿أَمْرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم، ذلك أنّ النُّفوس تذهب في تصوُّر الأمر المُبهم وتقديره كلَّ مذهب، يؤكّد ذلك دلالة السِّياق الذي ابتُدِئَ بالأحرف المقطَّعة، فالقسم بالكتاب ووصفه بالإبانة، وتوكيد إنزاله بحرف التَّوكيد متَّصلًا بضمير العظَمَة، وتنكير ليلة ووصفها بالبركة، وتقديم ضميرها لبناء ما بعدها - مِن فرق الأمور الحكيمة - عليها، وهذه كلُّها دلالات تعظيم وأمارات تفخيم لا تخفى على صاحب الذَّوق السَّليم، ثمّ وصف الأمر بالحكمة، وتكرار التَّعبير به منكَّرًا موصوفًا بالوصف الأسمى، ومطرَّزًا بحُلى البيان الأعلى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، فزِيدَ جزالةً وكسب فخامة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.

أمّا عن وصف الأمر بـ ﴿حَكِيمٍ﴾ فإنَّه لمّا كان إنزال القرآن الكريم مِن أجلِّ الأمور اختُصَّ إنزالُه بفَرْقِ الأمور الحكيمة[1].

وجه التعبير عن الحكمة بصيغة (فعيل):

عَظُمَ الأمرُ حكمةً بتنزيل ما فيه الخير والهدى، والنَّجاة مِن الضَّلال والرَّدى

إنَّ (فعيلًا) التي صُبَّ في قالبها الوصف بالحكمة يصحُّ أن تكون بمعنى (مُحكَم) كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ [لقمان: 2]؛ يعني: المحكَم[2]؛ لأنَّه لا يُبدَّل ولا يُغيَّر بعد إبرازه للملائكة عليهم السلام، بخلافه قبله وهو في اللَّوح، فإنَّ الله تعالى يمحو منه ما يشاء ويُثبت[3]؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾؛ أي: جميع ما يكون ويُقدِّره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه ﷻ[4]، ويصحُّ أن يكون ﴿حَكِيمٍ﴾ بمعنى: (المحكوم به) ونسبته إلى الأمر عليها حقيقة، ويجوز أن يكون المعنى: كلُّ أمرٍ متلبِّس بالحكمة، والأصلُ: حكيمٌ صاحبُه، فتُجوِّز في النِّسبة[5]، وكون ﴿حَكِيمٍ﴾ للنِّسبة؛ كـ(تامِرٍ) و(لابِنٍ) نسبةً للتَّمر واللَّبن، وقد أبهم الله سبحانه هذا الأمر تفخيمًا[6].

فوصف الأمر بالحكمة ليس وصفًا مخصّصًا له، وإنَّما هو وصفٌ مؤكِّد للوصف القائم في ذات الأمر ومبيِّنٌ له؛ كما يُقال في وصف العسل مثلًا بأنَّه حلوٌ، وفي وصفِ المِسك بأنَّه طيِّب الرِّيح[7].

بلاغة الإسناد المجازيِّ في قوله تعال: ﴿أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾:

التخصيص بالأحوال دليلُ حكمةٍ بالغة لذي الجلال

قوله تعالى: ﴿كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: كلُّ شأنٍ ذي حِكمة؛ أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة، وهو من الإسناد المجازيِّ، لأنَّ الحكيم

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 498.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 11.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 112.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن: 7/ 246.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 112.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 112.
(7) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 184.

صفة صاحب الأمر على الحقيقة، ووصفُ الأمر به مجازٌ[1]؛ وذلك لأنَّ تخصيص اللهِ تعالى كُلَّ أحدٍ بحالة مُعَيَّنة من العمُر والرِّزق والأجَل والسَّعادة والشَّقاوة يدُلُّ على حكمةٍ بالغة للهِ تعالى، فلمّا كانت تلك الأفعالُ والأقضيَة دالَّةً على حكمةِ فاعلِها وُصِفت بكونها حكيمةً، وهذا مِن الإسناد المجازِيِّ، لأنَّ الحكيم صفةُ صاحبِ الأمر على الحقيقة، فوَصْفُ الأمرِ به مجازٌ[2].

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ للفظ ﴿أَمْرًا﴾:

ثراء الدَّلالات بتعدُّد التَّوجيهات والتَّأويلات مِن آيات الإعجاز الباهرات

في نصب قوله تعالى: ﴿أَمْرًا﴾ اثنا عشر وجهًا، حاصلُها أنَّ انتصابَه يَرجِع إلى كونه: مفعولا به، ومفعولا له، ومصدرًا، وحالا، وإنَّما التَّكثيرُ بحَسبِ المحالِّ[3]، أو يكون بدلًا مِن الهاء في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، أو يكون منصوبًا على الاختصاص؛ أي: أعني بهذا الأمرِ أمرًا حاصلًا مِن عندنا، وكائنًا مِن لدُنّا على مُقتضَى حِكمتِنا، وكما اقتضاه علمُنا وتَدبيرُنا، وهو بيان لفخامة الأمر الإضافيَّة بعد بيان فخامته الذّاتيَّة[4].

نكتة تكرار التَّعبير بالأمر، ودلالة تنكيره:

ما يقتضيه علمُ الله تعالى عظيمٌ متفرّدٌ به العليم

المقصود به بالأمر: القرآن أنزله الله مِن عنده، أو أنَّه إرسال محمَّد ﷺ نبيًّا أو ما قضاه الله في اللَّيلة المبارَكة مِن أحوال عبادِه[5]، فـ"الأمر اسم مشتمل على جميع الأخبار"[6]، وأُعيد ذِكرُه في قوله

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 271، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 128.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 655.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 616 - 617.
(4) الفراء، معاني القرآن: 3/ 39، والزمخشري، الكشاف: 4/ 271، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 655، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1144، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59، والشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 342 - 343.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 246.
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 96.

تعالى: ﴿أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾؛ لتفخيم شأنه[1]، وأوثر تنكيره للتَّعظيم[2]؛ أي: أعني بهذا الأمر الحكيم أمرًا عظيمًا كائنًا مِن عندنا وحدَنا، وقد اقتضاه عِلمُنا وتدبيرُنا[3].

معنى ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتها في ﴿أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾:

الأصل في معنى ﴿مِّنۡ﴾ أنَّه حرفٌ موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[4]، وقوله تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾؛ أي: مِن جِهَتِنا، وهي لابتداءِ الغاية[5]؛ أي: أنَّ ابتداء فرق الأمور وقضائها وفصلها وتقديرها كان من عند الله تعالى، وأعظِم بها مِن نسبة! وأشرِفْ بها مِن بداية! كما "أنَّ مردَّ هذه الكتابةِ والتَّقدير للأشياء إليه وحده؛ فقال: ﴿أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾[6].

من الله تعالى ابتداء الأقضية وهو بُعَيض من قدرته غير المتناهية

وإنَّ لهذا الحرف ﴿مِّنۡ﴾ لموقعًا في الدَّلالة بديعًا فوق ما تقدَّم، وهو أنَّه دلَّ على أنَّ تقدير الأمور وفصلها وكتابتها على هذا النَّحو المبهر المعجب المعجز ليس مستغرِقًا لما تحت قدرة الله ﷻ، بل هو بُعَيض ذلك، بل أقلُّ؛ فلأجل هذه النُّكتة أُثبِت الجارُّ: ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾؛ أي: مِن العاديّات والخوارق وما وراءها[7].

معنى العندِيَّة وإضافتها إلى ضمير العظمة:

في نسبة القضاء لله ذي الجلال مزيد تفخيم وإجلال

وصف الأمر بقوله تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ زيادةً على تفخيم الأمر وتعظيمه؛ إذ فخَّمه أوَّلًا بأنْ وصفه بقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾، ثمَّ زاد في تفخيمه بأن نكَّره، ونصبَه على الاختصاص، ووصفه بقوله: ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾؛ أي: أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلًا من عندنا[8].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 113.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 117.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 617.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 117.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 7.
(8) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 498.

وهذا الظَّرف ﴿مِّنْ عِندِنَآ﴾ هو المقصود الأصليُّ، وإنَّما أُعيد لفظ الأمر تفخيمًا لشأنه، فكان مقتضَى الظّاهر أن يقع قوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِنَآ﴾ صفةً لقوله سبحانه: ﴿أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: أمرٍ حكيم مِن عِندنا، فخولف ذلك لهذه النُّكتة؛ أي: أمرًا عظيمًا فخمًا إذا وُصِف بـ ﴿حَكِيمٍ﴾، ثمَّ بكونه مِن عند الله تشريفًا له بهذه العِنديَّة، وينصرف هذا التَّشريف والتَّعظيم ابتداءً وبالتَّعيين إلى القرآن إذ كان بنزوله في تلك اللَّيلة تشريفُها وجعلُها وقتًا لقضاء الأمور الشَّريفة الحكيمة[1]، والمراد بالعِنديَّة أنَّه على وفق الحكمة[2].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾:

إرسال الرُّسل بالكتب لأجل الرَّحمة بالعباد

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إمّا أن يكون بدلًا مِن قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ على معنى: إنّا أنزلنا القرآن؛ لأنَّ مِن شأننا إرسال الرُّسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرَّحمة عليهم، أو جوابًا ثالثًا للقَسَم، أو: مستأنَفَة استئنافًا بيانيًّا؛ يعني: إنّا إنَّما فَعلْنا ذلك الإنذارَ لأجْل ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ يعني: الأنبياء ﷺ؛ لأنَّ مِن شأننا إرسالَ المرسَلين إلى النّاس لأجْل الرَّحمة بهم، والهداية لهم، والرِّعاية لمصالحهم[3]، مشيرًا إلى أنَّه ممّا قضى الله به في عباده أن يبعث في هؤلاء الأمِّيِّين رسولًا منهم، يتلو عليهم آيات الله ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، وذلك ليقيم الحُجَّة على عباده، وليأخذهم بذنوبهم إذا هم عَصَوْا رُسلَه وردّوا الهدَى الذي يحملونه مِن الله إليهم، كما يقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: 15][4].

وعلى أيٍّ من التَّأويلات الثَّلاثة فإنَّ حقَّ هذه الجملة أن تُفصَل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 113.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 271، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 655، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 653، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 346، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 117.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 185.

عن سابقتها، ذلك أنَّه على توجيه البدليَّة أو جواب القسَم فبينها وبين سابقتها تمام اتِّصال، وعلى توجيه الاستئناف البيانيِّ فبينها وبين سابقتها شبه كمال الاتِّصال.

نكتة توكيد جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾:

يراعي القرآن أحوال المخاطَبين، فيؤكِّد الخطاب إذا وجَّهَهُ للمنكِرين

أُكِّد قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ لأنَّه خطاب موجَّه إلى عموم النّاس، وهؤلاء النّاس منهم المؤمنون الموحِّدون، والمشركون المنكِرون والمتشكِّكون، فحسُن توكيده اهتمامًا بالخبر مراعاة لحال المؤمنين، فإنَّ إرسال الرُّسل لهداية البشر مِن الأمور الجليلة التي حُقَّ لها أن تتأكَّد لتُكسَى رداء الاهتمام، كما حسُن توكيده كذلك مراعاة لحال المشركين، ومواجهة لإنكار المعرضين[1].

دلالة التَّعبير بالكون الماضي:

من عادة الله في خلقه، وسُنَّته في عباده أنَّه أرسل لهم رسلًا لإقامة الحُجَّة وبيان المحجَّة

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ أي: من عادتنا إرسال الرُّسل لهداية البشر، واعتبار العادة في بيان المعنى جاء مِن قوله تعالى: ﴿كُنَّا﴾ فإنَّه يُقال: كان يفعل كذا لِما تكرَّر وقوعُه وصار عادةً، ولإفادة هذه النُّكتة عُدل عن (إنّا مرسلون) إلى ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ مع أنَّ الأوَّل أخصَر[2].

فقوله تعالى: ﴿كُنَّا﴾؛ أي: أزلًا وأبدًا ﴿مُرْسِلِينَ﴾؛ أي: لنا صفة الإرسال بالقدرة عليها في كلِّ حين، والإرسال لمصالح العباد لا بدَّ فيه مِن الفرقان بالبشارة والنِّذارة وغيرهما حتى لا يكون لبسٌ، فلا يكون لأحد على اللَّه حجَّة بعد الرُّسل[3].

دلالة التَّعبير بـ ﴿مُرْسِلِينَ﴾ من حيث مادَّتها وصيغتها:

أصل الرَّسْلِ: الانبعاثُ على التُّؤدةِ، والامتدادُ، ومنه: الرَّسولُ؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 7.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 114.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 7.

أي: المُنبعِث، وتُصوِّر منه تارة الرِّفق، فقيل: على رِسْلِكَ، إذا أمرته بالرِّفق، وتُصوِّر منه تارة الانبعاثُ فاشتُقَّ منه الرَّسول، واسترسَلَ الشَّيءُ: سَلِسَ، وأرسلتُ فلانًا في رسالة، فهو مُرسَل ورسول[1].

الإرسال انبعاث بتؤدة، رحمة من المرسِل بالمرسَل إليهم، وإتمامًا لمنَّته عليهم

ولمّا ذَكَر الله تعالى إنزال القرآن في قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ ذَكَر المرسَل فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ أي: مرسلين الأنبياء بالكتب للعباد[2].

وصيغة اسم الفاعل فيها دالَّة على الثُّبوت والدَّوام؛ أي: مِن عادة الله سبحانه في خلقه أن يرسل لهم رسلًا تنذرهم وتحذِّرهم وتهديهم وتبشِّرهم.

نكتة حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿مُرْسِلِينَ﴾:

فوائد الرسل لا تعدُّ وفضائلهم لا تحصى

مفعول ﴿مُرْسِلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه مادَّة اسم الفاعل؛ أي: مرسلين الرُّسل الكرام[3] محمَّدًا ﷺ ومَن قَبله مِن المرسَلين[4]، يتلون عليهم آيات الله مبيِّنات؛ فإنَّ الحاجة كانت ماسَّة إليهم؛ ولهذا قال عَقِيبَه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[5]، هذا وجه في تعيين المحذوف، ويجوز أن يكون المعنى[6]: منزلين ما قضيناه على العِباد، أو: مرسلين رحمةً مِن ربِّك، ولا يخفى ما أفاده الحذف من الرِّعاية على الفاصلة، فكانت حُسنًا على حُسن.

نكتة تنكير ﴿رَحْمَةً﴾، وبيان وجه نصبها:

الإرسالُ بالإنذارِ رحمةٌ بالنّاس ليتجنَّبوا مهاوي العذاب، ويجنوا مكاسب الثَّواب

نُكِّر لفظ ﴿رَحْمَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ لإفادة

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رسل).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 398.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 11، والبغوي، معالم التنزيل: 7/ 228، والقنوجي: فتح البيان: 12/ 391.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن: 7/ 246.
(6) الماوردي، النكت والعيون 5/ 246.

التَّعظيم والتَّفخيم[1]؛ فما رَحِم اللّه عبادَه برحمةٍ أجلَّ مِن هدايتهم بالكُتب والرُّسل، وكلُّ خير ينالونه في الدُّنيا والآخرة فإنَّه مِن أجلِ ذلك وسببه، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رُسُله وكُتُبه فرَحِمهم بذلك، ومَنَّ عليهم، فله تعالى الحمد والمنَّة والإحسان[2].

أمّا عن علَّة نصبه فيجوز أنْ يكون مفعولًا له؛ والمعنى: أنّ مِن عادتِنا إرسالَ الرُّسلِ بالكُتب إلى العباد لأجلِ إفاضةِ رحمتِنا عليهم، أو لاقتضاءِ رحمتِنا السابقةِ إرسالَهم، أو يكون مفعولًا مطلقًا لفعلٍ مقدَّرٍ؛ أي: رَحِمْناكم رَحْمَةً، أو يكون مفعولًا به لقوله: ﴿مُرْسِلِينَ﴾؛ أي: مرسِلين رحمةً، فيُراد بالرَّحمة النَّبِيُّ ﷺ، ودليله قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، أو يكون حالًا أو بدلًا[3].

معنى ﴿مِّن﴾:

الأصل في معنى ﴿مِّن﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[4]، وقوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ أي: رحمة عظيمة منشؤها ومصدرها وابتداؤها هو اللّه تعالى، فما أعظمها مِن نسبة، وما أجلَّها مِن صِلة! ولا ريبَ في أنَّ كلاً مِن قسمة الأرزاق وغيرِها والأوامرِ الصّادرة منه تعالى مِن باب الرَّحمةِ، فإنَّ الغاية لتكليف العباد تعريضُهم للمنافعِ[5].

اللّه تعالى مبدأ الرحمة ومصدرها

سرُّ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في ﴿رَّبِّكَۚ﴾:

أوثر التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ لِما يتضمَّنه لفظ الرَّبِّ مِن معاني التَّربية التي هي تبليغ الشَّيء إلى

تقتضي الرُّبوبيَّةُ الرَّحمةَ على المربوبين ببعث الأنبياء والمرسَلين

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 113.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 772.

(3) الفراء، معاني القرآن: 3/ 39، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1145، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 617، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 571، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59.

(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 271، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59.

كماله شيئًا فشيئًا، والكمالُ الدِّينيُّ أعظم مِن الكمال الحسِّيِّ؛ فتلك التَّربية تكون أعظم أنواع التَّربية[1]، وأيضًا لِما تقتضيه لوازم الرُّبوبيَّة مِن الخلْق، والرِّزق، والتَّدبير، والعناية، والرِّعاية، والإحسان[2]، وكلُّها مرادة هاهنا، فناسب المقام أن يُعبَّر بها.

وكان ظاهر السِّياق أن يقال: إنّا كنّا مرسِلين رحمةً مِنّا، لكنَّه عُدِل عنه إلى التَّعبير بالرُّبوبيَّة: ﴿رَحۡمَةَ مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ إيذانًا بأنَّ الرُّبوبيَّة تقتضي الرَّحمة على المربوبين[3]، فقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ أي: المحسِن إليكَ بإرسالكَ وإرسال كلِّ نبيٍّ مضى مِن قَبلِك، فإنَّ رسالاتهم كانت لبثِّ الأنوار في البلاد، وتمهيد الشَّرائع في العِباد، حتَّى استنارَت القلوب، واطمأنَّت النُّفوس، بما صارت تعهد مِن شرع الشَّرائع وتوطئة الأديان، فتسهَّلت طرق الرَّبِّ لتعميم رسالتك حتَّى ملأت أنوارُك الآفاق، فكنتَ نتيجة كلِّ مَن تقدَّمك مِن الرِّفاق[4].

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿رَّبِّكَۚ﴾، وبيان المراد بالخطاب:

الإضافة في قول الله تعالى: ﴿رَحۡمَةَ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ هي إضافةٌ محضَةٌ تفيد التَّعريف[5]، وهي

تدلُّ كذلك على التَّشريف؛ أي: تشريف النَّبيِّ ﷺ[6].

في العدولِ ترهيبٌ للكافرين، وترغيبٌ للمؤمنين، وبيانٌ لمكانة رسول ربِّ العالمين

ثمَّ إنَّ فيها صرفًا للكلام عن مواجهة المشركين إلى مواجهة النَّبيِّ ﷺ بالخطاب؛ لأنَّه الذي جرى خطابهم هذا بوساطته، فهو كحاضرٍ معهم عند توجيه الخطاب إليهم، فيُصرف وجهُ الكلام تارة إليه كما في قوله: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ [يوسف: 29]

(1) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 373.
(2) أحمد الزاملي، الآيات القرآنية الواردة في الرد على البدع المتقابلة - دراسة عقدية: 1/ 194.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 271، والطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 198 - 199.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 8.
(5) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 73.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59، والبروسوي، روح البيان: 8/ 405.

وهذا لقصد التَّنويه بشأنه ﷺ بعد التَّنويه بشأن الكتاب الذي جاء به، وإضافة الرَّبِّ إلى ضمير الرَّسول ﷺ ليتوصَّل إلى حظٍّ له في خلال هذه التَّشريعات بأنَّ ذلك كلَّه من ربِّه؛ أي: بوساطته، فإنَّه إذا كان الإرسال رحمةً كان الرَّسول ﷺ رحمةً كذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، ويعلم مِن كونه ربِّ الرَّسول ﷺ أنَّه ربُّ النّاس كلِّهم إذ لا يكون الرَّبُّ ربَّ بعض النّاس دون بعضٍ، فأغنَى عن أن يقول: رحمةً من ربِّك وربِّهم؛ لأنَّ غرض إضافة (ربٍّ) إلى ضمير الرَّسول ﷺ يأبى ذلك، ثمَّ سيصرِّح بأنَّه ربُّهم في قوله: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[1]، فجيء هنا بلفظ الرَّبِّ مضافًا إلى ضميره ﷺ على وجه تخصيص الخطاب به ﷺ تشريفًا له ﷺ، ودلالة على أنَّ كونه سبحانه ربَّكَ - وأنت مبعوثٌ رحمةً للعالمين - ممّا يقتضي أن يرسل الرَّحمة[2].

نكتة الإظهار في مقام الإضمار:

لا رحمةَ تعادلُ رحمةَ ربِّ العالمين

قوله سبحانه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ وُضِع فيه الظّاهر مَوضع الضَّمير، ذلك أنَّ إيراد لفظ الرَّبِّ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ ذلك أنَّ مقتضَى الظّاهر أن يقول: رحمة منّا، فوضع الظّاهر موضع الضَّمير، وفائدة هذا الإظهار: الإشعار بأنَّ معنى الرُّبوبيَّة يستدعي الرَّحمة بالمربوبين، وأنَّ هذا الإرسال هو مِن أحكام الرُّبوبيَّة ومقتضياتها[3]، ثمَّ بيَّنَ أنَّ تلك الرَّحمة وقعتْ على وفْقِ حاجات المحتاجِينَ؛ لأنَّه تعالى يسمع تضرُّعاتِهم، ويعلم أنواعَ حاجاتهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 114.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 271، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 654.

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تعليلٌ لجملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ أي: كنّا مرسلين رحمةً بالنّاس؛ لأنَّ الله هو السَّميع العليم[1]، فهو استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر، وهو: لماذا يرحم الله النّاس بإرسال الرُّسل؟ فالجواب: لأنَّه هو السَّميع العليم.

من حقِّ الاستئناف البيانيّ أن يُفصَل عن سابقه، ويمهِّد لِلاحقه

وعلى هذا التَّعليل المتداخل بُنِيَت آيات السّورة حتَّى الآن، فكأنَّه لمّا قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ قيل: لم؟ فأجيب: لأنَّه من شأننا التَّحذير والعقاب، فقيل: لم خُصِّص الإنزال في هذه اللَّيلة؟ فقيل: لأنَّه من الأمور المحكَمَة، ومن شأن هذه اللَّيلة أن يُفرق فيها كلُّ أمر حكيم، فقيل: لِمَ كان من الأمور المحكَمَة؟ فأجيب: لأنَّ ذا الجلال والإكرام أراد إرسال رحمة للعالمين، ومن حقِّ المنزل عليه أن يكون حكيمًا؛ لكونه للعالمين نذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فقيل: لماذا رحمهم الرَّبُّ ﷻ بذلك؟ فأجيب: لأنَّه ﷻ هو وحدَه سميع عليم، يعلم جزئيّات أحوال عباده وكلِّيّاتها، ويعلم ما يحتاجون إليه دنيا وآخرة، وهو وحده ربُّ السَّماوات والأرض، يربِّيهم ويرزقهم ويمنحهم مرافقهم، وهو وحدَه يحييهم ويميتهم، ويثيبهم ويعاقبهم، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[2].

نكتة التوكيد بـ(إنَّ):

أُكِّد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ اهتمامًا بالخبر، وردًّا على المنكِرين، وذلك يعني أنَّ الرَّحمة المذكورة في قوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ كانت رحمةً في الحقيقة؛ لأنَّ المحتاجينَ إمّا أن يذكروا بألسنتهم حاجاتهم، وإمّا أنْ لا يذكروها، فإنْ ذَكَروها فهو تعالى

يحسن بالأخبار المهمَّة أن تؤكَّد، فلا يبقى ريب في قلب متردِّد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.

(2) الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف: 14/ 197.

يسمع كلامهم فيعلم حاجاتهم، وإنْ لم يذكروها فهو تعالى عالمٌ بها، فثبت أنَّ كونه سميعًا عليمًا يقتضِي أن ينْزِل رحمته عليهم[1]، فحسن لأجل ذلك توكيده.

دلالة توسيط ضمير الفصل مع تعريف الطَّرفين:

علَّة الرُّبوبيَّة منحصرةٌ في السَّميع العليم المستحقّ لها

أفاد توسيطُ ضمير الفصل مع تعريف الطَّرفين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الحصرَ؛ أي: هو السَّميع العليم لا أصنامكم التي تدَّعونها، وفي هذا إيماء إلى الحاجة إلى إرسال الرَّسول إليهم بإبطال عبادة الأصنام[2]، فالجملة تحقيق لربوبيَّته ﷻ وأنَّها لا تحقُّ إلّا لمَن هذه نعوتُه[3]، وهذا يفيد انحصار الرُّبوبيَّة فيه سبحانه لانحصار علَّتها فيه ﷻ[4].

بلاغة الكناية الرَّمزيَّة:

علَّة الإرسال إرادةُ الصَّلاح، ورحمة الخلق بتهيئة أسباب الفلاح

الاسمان الجليلان: السَّميع والعليم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تعليلان لجملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بطريق الكناية الرَّمزيَّة؛ "لأنَّ علَّة الإرسال في الحقيقة هي إرادة الصَّلاح ورحمة الخَلْق، وأمّا العِلم فهو الصِّفة التي تجري الإرادة على وفقها، فالتَّعليل بصفة العِلم بناء على مقدِّمة أخرى، وهي أنَّ الله تعالى حكيم لا يحبُّ الفساد، فإذا كان لا يحبُّ ذلك وكان عليمًا بتصرُّفات الخَلْق كان علمه وحكمته مقتضِيَيْن أن يرسل للنّاس رُسُلًا رحمةً بهم"[5].

معنى التَّعريف والمبالغة في ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

لا تخفى على الله تعالى خافية، والسِّرُّ عنده علانية

السَّميع والعليم: صفتا مبالغة مشتقَّتان مِن الفعلَيْن: سَمِع، وعَلِم؛ أي: كثير السَّمع والعِلم عظيمهما[6]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 655.
(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 198، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 282.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 374.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 282.
(6) الهلال، الثري الجامع: 10/ 419.

أي: يسمع كلَّ شيء مِن شأنه أن يُسمَع، ويعلم كلَّ شيء مِن شأنه أن يُعلَم، فلا يخفى عليه شيء مِن أقوال العِباد وأفعالهم وأحوالهم، وهو تحقيق لربوبيَّته ﷻ، وأنَّها لا تحقُّ إلّا لمَن هذه صفاته الجليلة[1].

بلاغة مناسبة ختام الآية بهذين الاسمين الجليلين:

في تخصيص هذين الاسمين الجليلين إدماج لمعنى وعيد الكافرين، ووعد المؤمنين

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تعليل لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: كنّا مرسِلين رحمةً بالنّاس؛ لأنَّه سبحانه عَلِم عبادة المشركين للأصنام، وعَلِم إغواء أئمة الكفر للأُمم، وعَلِم ضجيج النّاس مِن ظُلم قويِّهم ضعيفَهم، وعَلِم ما سوى ذلك مِن أقوالهم؛ فأرسل الرُّسل لتقويمهم وإصلاحهم، وعَلِم أيضًا نوايا النّاس وأفعالهم، وإفسادهم في الأرض؛ فأرسل الرُّسل بالشَّرائع لكفِّ النّاس عن الفساد، وإصلاح عقائدهم وأعمالهم، فأُشيرَ إلى عِلْم النَّوع الأوَّل بوصف ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾؛ لأنَّ السَّميع هو الذي يعلم الأقوال فلا يخفى عليه منها شيء، وأُشيرَ إلى عِلْم النَّوع الثّاني بوصف ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الشّامل لجميع المعلومات[2].

وفي تخصيص ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إدماجٌ لمعنى التَّهديد والوعيد للكُفّار، والوعد للمؤمنين الذين تلقَّوْا هذه النِّعمة بأنواع الشُّكر[3]، وهو تعليل للإرسال متضمِّن للتَّعريض؛ للإشعار بأنَّ آلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئًا[4].

سرُّ تقديم صفة السَّمع على صفة العِلم:

الأقوال تُظهرُ مكنونات النفوس، وتغيّر الأحوال

قُدِّمتْ صفة السَّمع على صفة العِلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ للاهتمام بالمسموعات؛ لأنَّ أصل الكفر هو دعاء

(1) البروسوي، روح البيان: 8/ 405.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 282.
(3) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 199، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 282.
(4) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 198.

المشركين أصنامهم[1]؛ لكون "الأقوال هي الظاهرة لنا الدّالة على ما في الباطن"[2]، و" لأنه لا بد من سماع الكلام أولا ثم من حصول العلم بمعناه"[3]، وهذه من عادات القرآن، حيث جاءت صفة السَّمع في آياته مقدَّمة على صفة العِلم والبصر والقُرب[4].

توجيه القراءات القرآنيَّة في ﴿رَبِّ﴾:

قرأ الجمهور: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ برفع ﴿رَبُّ﴾، والرَّفع فيه على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هو ربُّ السَّماوات والأرض، أو: أنَّه خبرٌ آخرُ بعدَ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أو: أنَّه مبتدأ، وخبره جملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ بجرِّ ﴿رَبِّ﴾ على أنَّه بدل مِن قوله: ﴿رَّبِّكَ﴾، أو بيانٌ أو نعتٌ[5].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

ربُّ السَّماوات والأرض هو الذي لا يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومما يفعلونه

إذا جرينا على قراءة الرَّفع - ابتداءً أو خبرًا - فهو مِن الاستئناف البيانيِّ؛ إذ التَّقدير: إن أردت أن تعرف مَن هو السَّميع العليم فهو ربُّ السَّماوات والأرض[6]، وعليه فبين الجملتين شبه كمال الاتِّصال، وإذا جرينا على قراءة الجرِّ - بدلًا أو نعتًا - فهو مِن كمال الاتصال، وكلا الأمرين - كمال الاتِّصال أو شبهه - موجِب للفصل.

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

إذا كان المُنزل (اللهُ) موصوفًا بهذه الجلالة، كان المُنزَل (القرآنُ) في غاية الشَّرف والرِّفعة

الإضافة في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إضافة محضَة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 654.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 121.
(4) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس: (سمع).
(5) أبو عليّ الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 6/ 165، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 424، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 12، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59، والسَّمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 618، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 571، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.

تفيد التَّعريف[1]، غرضها تعظيم المضاف، فربٌّ يملك السَّماوات والأرض وما بينهما هو ربٌّ عظيم جليل، حقيق أن يُعبَد؛ فكيف بعد ذلك يجحده الكافرون لأجل أصنام لا تبصر ولا تسمع، ولا تضرُّ ولا تنفع، ولا تغني ولا تشفع، ولا تملك ذرَّة في السَّماوات والأرض؟!

معنى التَّعريف في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

أفاد التَّعريف في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معنى الاستغراق، ليعمَّ ذلك كلَّ السَّماوات والأرضين، فكلٌّ ذلك ملكٌ للّه الواحد الأحد، وهو من مقتضيات ربوبيَّته سبحانه.

مُلْكُ الله قد عمَّ الآفاق، وآلاؤه لا تنفكُّ عن الإشراق

ويصحُّ أن تكون اللّام للعهد، وذلك للتَّسجيل على الكافرين وإقامة الحجَّة على المعاندين؛ أي: هو ربُّ السَّماوات التي عهدتموها تُظِلُّكم، والأرض التي عَهِدتموها تُقِلُّكم، ولم تدَّعِ السَّماوات ولا الأرض أنَّ لهما ربًّا غير اللّه، فكيف كفرتم أنتم؟! أفَتَحمِلُكم نعماؤه، وتُظِلُّكم آلاؤه، ثمَّ تجاهرون بالكفر سافرين؟!

معنى (ما) في ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾:

(ما): تقع على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات مَن يعقل، فهي أوسع استعمالًا مِن أختها (مَن) وأكثر منها إبهامًا؛ فإنَّ (مَن) تختصُّ بالعقلاء[2]، ومِن هنا يُفهَم مِن التَّعبير بـ(ما) في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ أنَّه يفيد استيعاب كلَّ ما يقع بين السَّماوات والأرض، عاقلًا كان أو غير عاقل، فقد استغرقت (ما) كلَّ ذلك، ودلَّ عليه إطلاق ألِفها، وتوسيع الصَّوت بها، وقد وصَفَ اللّه سبحانه ذاتَه العليَّة بما يدلُّ على كمال قدرته، ونفاذ إرادته، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾؛ أي: ما بينهما مِن هواء، ومِن مخلوقات لا يعلمها إلّا اللّه تعالى[3].

من كمال قدرة اللّه تعالى، ونفاذ إرادته استيعاب كلّ ما يقع في الوجود

(1) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 73.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 130.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 117.

نكتة بناء فاصلة الآية على أسلوب الشَّرط:

في الشَّرط إلزام للمشركين بما كانوا به يقرّون، ولكنَّهم ظلّوا في شكّهم يلعبون

بُنِيَت فاصلة الآية على أسلوب الشَّرط تحريكًا للمشركين بأنَّهم يُقرّون بأنَّ الله تعالى خالقُ العالَم، وأنَّه أنزل الكُتُب، وأرسل الرُّسل رحمةً منه، وأنَّ ذلك منهم مِن غير عِلْم وإيقان؛ ولذلك جاء بعده قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: في شَكٍّ لا يزالون فيه يلعبون، فإقرارهم ليس عن جدٍّ ولا تيقُّن[1].

وهذا عَوْدٌ إلى مواجهتهم بالتَّذكير على نحو ما ابتدأت به السّورة، وهو تخلُّصٌ للاستدلال على تفرُّد الله تعالى بالإلهيَّة إلزامًا لهم بما يُقرّون به مِن أنَّه سبحانه ربُّ السَّماوات والأرض وما بينهما، ويقرّون بأنَّ الأصنام لا تخلُق شيئًا، غير أنَّهم معرضون عن نتيجة الدَّليل ببطلان إلهيَّة الأصنام، فلذلك تكرَّر في القرآن تذكيرُهم بأمثال هذا مِن مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: 17] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: 20 - 21][2].

ففي هذا الشَّرط تنزيلُ إيقانهم منزلةَ عدمه لظهور خلافِهِ عليهم، وهو مُرادُ مَن قال: إنَّه مِن باب تنزيل العالِم منزلةَ الجاهل لعدم جريه على موجب العِلم[3]، وذلك أنَّهم كانوا مُقِرِّين بأنَّ الله سبحانه هو ربُّ السَّماوات والأرض، فقيل لهم: إن كنتم على بصيرة وإيقان مِن ذلك فلا تشكّوا فيه، أو إن كنتم موقنين بشيءٍ فأيقنوا بما أخبرتكم، أو إن كنتم تريدون اليقين فاعلموا ذلك[4].

نكتة التَّعبير بحرف الشَّكّ ﴿إِن﴾:

الإيمان بربّ العالمين لازمه التسليم واليقين

أوثر التَّعبير بحرف الشَّكّ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 399.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 103.

مُّوقِنِينَ﴾ لأنَّهم لمّا كانوا مقرِّين بهذه الرُّبوبيَّة ويأنفون مِن وصْفِهم بأنَّهم غير محقِّقين لشيء يعترفون به، أشار إلى ما يلزمهم بهذا الإقرار إنْ كانوا كما يزعمون مِن التَّحقيق فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ أي: إنْ كان لكم إيقان بأنَّه الخالق[1]، فنزَّلهم منزلةَ المشكوك في إيقانهم لعدم جريهم على موجب الإيقان للّه بالخالقيَّة حين عبدوا غيرَه بأنْ أُتِي في جانب فرْضِ إيقانهم بطريقة الشَّرط، وأُتِي بحرف الشَّرط الذي أصلُه عدمُ الجزم بوقوع الشَّرط[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بفعل الكينونة:

لم يقع قولهم من أنفسهم موقع اليقين الذي تدعمه الأدلَّة والبراهين

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ حثٌّ للمشركين، وتحريضٌ لهم على الإيمان والتَّفكُّر والتَّبصُّر[3]، وقد أفاد هذا التَّركيب ما لن يفيده (إن أيقنتم)، وذلك لمكان (كان) التي تدلُّ على الاستمرار والدَّوام، وثبوت الصِّفة للموصوف، بخلاف الفعل الماضي الذي قد يقع مِن فاعِله لمرَّة واحدة فقط.

والنُّكتة هنا أنَّ هذه الآية جاءت ردًّا على زعم المشركين بأنَّهم مقرّون بربوبيَّة اللّه تعالى، وأنَّهم لم يكفروا به، فجاء الرَّدُّ: إن كنتم - كما تزعمون - ثابتين على اليقين، ومستمرِّين على الإيمان بربِّ العالَمين لأقررتم بما جاءكم به رسولكم الأمين ﷺ، فلمّا لم يقرّوا بذلك، بل ظلّوا في شكِّهم يلعبون، فُهِم مِن فحوى الخطاب أنَّهم لم يحصل منهم يقين أصلًا، بل كانوا مستمرِّين على خلافه! فهو تعريضٌ باضطرابهم، وسَدَرِهم في غيِّهم.

بلاغة الإيجاز بحذف جواب الشَّرط:

الإيمان بيقين سرّ عبادة المُخلَصين

جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ محذوفٌ دلَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 9 - 10.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 25/ 205.

عليه المقام، والتَّقدير: إنْ كنتم موقنين فلا تعبدوا غيرَه؛ ولذلك أعقبه بجملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]، أو: إن كنتم مِن أهل الإيقان عَلِمْتم كونَه سبحانه ربَّ السَّماوات والأرض؛ لأنَّه مِن أظهر اليقينيّات دليلًا، وحينئذٍ يلزمكم القولُ بما يقتضيه ممّا ذُكِر أوَّلًا[2]، أو: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بشيءٍ فهذا أولَى ما توقنون به لفرط ظهوره، أو: إن كنتم مريدين لليقين فاعلموا ذلك[3]، أو: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أنَّ الله سبحانه هو ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، فأيقِنوا أنَّ محمَّدًا ﷺ رسولُه، وأنَّ القرآن تنزيلُه[4].

نكتة حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿مُّوقِنِينَ﴾:

حُذِف متعلَّق اسم الفاعل ﴿مُّوقِنِينَ﴾ للعِلم به مِن قوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[5]؛ أي: إن كنتم موقنين به، ويجوز أن يكون المعنى: إن كنتم ممَّن عنده شيء من الإيقان وطرف من العلوم اليقينيَّة، على أنَّ ﴿مُّوقِنِينَ﴾ المتعدِّي مُنَزَّل منزلةَ اللّازم لعدم القصد إلى ما يتعلَّق به[6]، أو أنَّ مفعوله مقدَّرٌ؛ أي: إن كان إقرارُكم إذا سُئلتم: مَن خلق السَّماوات والأرض؟ فقلتم: الله - صادرًا عن يقين، وعِلم به تحقَّق عندكم ما قلناه[7].

الموقن يسعى إلى ترسيخ معتقده، وتأكيد علمه بخالقه

ويجوز أن يُراد بالموقِن ها هنا الذي يريد اليقينَ ويطلُبه، كما تقول: فلانٌ يُنْجِدُ؛ أي: يُرِيدُ نَجْدًا، ويُتْهِمُ؛ أي: يُرِيدُ تِهامَةَ[8]، وفيه - مع ما تقدَّم - رعاية على الفاصلة، فتعانق حسن اللَّفظ مع جودة المعنى وروعة السَّبك.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(3) البروسوي، روح البيان: 8/ 405.
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 23/ 511.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(7) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 4.
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 129.

بلاغة الالتفات من خطاب المفرد إلى خطاب الجمع:

في الالتفات تنبيه للغافل، وتذكير للعاقل بأن يعرف أنَّه الخالق

خطاب الجمع في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ تنبيه للكُفّار عن سُنَّة الغَفلة والتَّقاعد عن موجبات الشُّكر، فرجع إليهم مِن خطاب الرَّسول ﷺ في قوله: ﴿رَّبِّكَ﴾، موبِّخًا بما اشتهر عندهم مِن الوصف الذي لا بدَّ لهم أن يُقرّوا به، فأبدل مِن ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، يعني: هذا المذكور مِن إنزال الكتب وإرسال الرَّسول ﷺ رحمة وإنعام ممَّن تقرّون به، وتقولون: إنَّه خالق السَّماوات والأرض وما بينهما، فما هذا التَّهاون؟! فاقبلوها واغتنموا الفرصة إن كنتم تدَّعون الإيقان[1].

ويحتمل أنْ يكون هذا الخطابُ مع المعترف بأنَّ الله خَلَق السَّماوات والأرضَ؛ أي: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ به فاعلموا أنَّ له أن يُرسِلَ الرُّسُل، وينزل الكتب، ويجوزُ أن يكون الخطاب مع مَن لا يَعترفُ أنَّه الخالق؛ أي: ينبغي أن يعرفوا أنَّه الخالق، وأنَّه الذي يُحْيِي ويُمِيتُ[2].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ عن سابقه:

انفراد تعالى بالربوبيَّة دليلٌ على انفراده بالإلهيَّة

تقدَّم في توجيه قراءة الرَّفع في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ أنَّه إمّا على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، والتَّقدير: (هو ربُّ السَّماوات والأرض)، وإمّا أنَّه خبر آخر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، وإمّا على أنَّه مبتدأ، وخبره هو جملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[3]، فهي بهذا التَّأويل جملةٌ مستأنَفة مقرِّرةٌ لما قبلَها، وقيلَ: هي في محلِّ رفع خبر لقولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ - على قراءة الرَّفع - وما بين الجملتين اعتراضٌ[4].

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 199.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 129.
(3) السَّمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 618، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 571.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59، والبروسوي، روح البيان: 8/ 405، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 654.

وعلى كلٍّ فهي نتيجة للدَّليل المتقدِّم؛ لأنَّ انفراد الله سبحانه بربوبيَّة السَّماوات والأرض وما بينهما دليلٌ على انفراده بالإلهيَّة، أي: على بطلان إلهيَّة أصنامهم، فكانت هذه الجملة نتيجة لذلك؛ فلذلك فصلت لشدَّة اقتضاء الجملة التي قبلها إيّاها[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بالقصر نفيًا واستثناءً:

لا يستحقُّ العبادةَ غيرُ الله تعالى

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تنبيه على تمام دليل الوحدانيَّة؛ لأنَّه لا شيء ممَّن في السَّماوات والأرض يبقى ليُسنَد التَّدبير إليه، ويُحال شيء مِن الأمور عليه، فهما جملتان: الأولى نافية لما أثبتوه مِن الشَّركة، والثّانية مثبِتة لما نفَوْه مِن البعث[2].

وهو أسلوب قصر سُلِكت فيه طريقة النَّفي والاستثناء، ومن المتقرِّر أنَّ القصر بالنَّفي والاستثناء إنَّما يكون فيما ينكره المخاطَب[3]، وهو قصرُ إفراد لا قصرُ قلْب؛ لأنَّ المشركين كانوا يُثبتون الألوهيَّة لله تعالى ويشركون معه غيره، فردَّ الله عليهم بكونه لا يستحقُّ العبادةَ غيرُه[4].

نكتة التَّعبير بعنوان الألوهيَّة بعد التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة:

تمام العبوديَّة يكون بتوحيد الألوهيَّة بعد توحيد الرُّبوبيَّة

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ تنبيه على تمام دلائل التَّوحيد[5]، فبعد إثبات الرُّبوبيَّة لله أثبت الوحدانيَّة، فهو الإله الواحد الذي لا إله غيره، وأثبت القدرة فهو المحيي والمميت، يحيي ما يشاء، ويميت ما يشاء، ثمَّ أكَّد الرُّبوبيَّة على البشر بالذّات، فهو ربُّكم أيُّها المخاطبون وربُّ آبائكم وأجدادكم الأوَّلين، ومدبِّر شؤونهم، فهو المستحقُّ للعبادة، دون غيره مِن الآلهة المزعومة[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 11.
(3) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 279.
(5) نووي الجاوي، مراح لبيد: 2/ 392.
(6) الزحيلي، التفسير المنير: 25/ 208.

وقد ذُكر توحيد الرُّبوبيَّة إجمالًا في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، ثمَّ تفصيلًا بذِكر صفة عموم العِلم التي هي صِفة المعبود بحقٍّ بصيغة قصر القَلْب المشير إلى أنَّ الأصنام لا تسمع ولا تعلم، وبِذِكر صفة التَّكوين المختصَّة به تعالى بإقرارهم؛ ارتقاءً في الاستدلال على تفرُّد الله سبحانه بالإلهيَّة إلزامًا لهم بما يُقرّون به مِن أنَّه ربُّ السَّماوات والأرض وما بينهما، ويُقرّون بأنَّ الأصنام لا تخلق شيئًا، غير أنَّهم معرِضون عن نتيجة الدَّليل ببطلان إلهيَّة الأصنام[1].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

قوله تعالى: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ جملة مستأنَفَة للاستدلال على أنَّه لا إله إلا هو بتفرُّده بالإحياء والإماتة[2]، فهي مقرِّرة لما قبلَها، فالمراد بالإحياء: إحياء الجماد، والمراد بالإماتة: الإماتة بدون تخريب البُنيان، ومعلومٌ بديهةً أنَّه لا يقدر على ذلك إلّا هو سبحانه؛ ولذلك اختير الفصل على الوصل[3]، فهو استئناف بيانيٌّ[4].

لا يقدر على الإحياء والإماتة إلّا الله، فلا يستحقُّ العبادة أحدٌ سواه

دلالة التَّعبير بالمضارع في ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

استعمال المضارع في قوله تعالى: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ للدَّلالة على الاستمرار[5]، فإنَّ الله ﷻ لمّا يزل مُحييًا ومُميتًا، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: 29]، وهذا مِن كمال قدرته سبحانه، واستحقاقه للرُّبوبيَّة والألوهيَّة، وللتَّعريض بأنَّ آلهة المشركين لا تقدر على شيء مِن هذا، فكيف ألَّهوها؟! قاتَلَهم الله أنَّى يُؤفَكون!

لمّا يزل الله تعالى مُحييًا مُميتا، مقتدِرًا مُقيتًا

بلاغة الطِّباق بين ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

بين قوله تعالى: ﴿يُحْيِۦ﴾، و ﴿وَيُمِيتُ﴾ طباق إيجاب، يؤكِّد طلاقة

مَن يخلق ليس كمن لا يخلق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 284.
(3) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 375.
(4) محمود صافي، الجدول: 13/ 118.
(5) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 375.

قدرة الله تعالى على الأمرين، فهو يخلق مِن العدم، ويهب الحياة لَمَن خلَق، فتسري فيه الرّوح حيَّة نابضة، ويسلب الحياة مِن الأحياء فتكون جثثًا هامدة، ولا يملك هذا أو يقدر عليه إلّا الواحد الأحد!

نكتة حذف متعلَّق الفعلين ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

حُذِف مفعولا الفعلين للتَّعميم اختصارًا؛ بمعنى: يُحيِي الأموات، ويُمِيت الأحياء، أو يُحيِي بعضًا أو قرنًا، ويُمِيت بعضًا أو قرنًا[1].

مناسبة التَّعبير بالإحياء والإماتة في سياق الاستدلال على التَّوحيد:

لا أحد من أهل السَّماء والأرض يبقى ليُسنَد التَّدبير إليه، ويُحال شيء مِن الأمور عليه

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هو منطق المستيقن؛ أي: الذي عَلِمَ عن يقين أنَّ الله ربُّ السَّماوات والأرض وما بينهما، فمَن عَلِم هذا واستيقنه، أسلَمه هذا العِلم إلى أنْ يعلم ويستيقن أنَّ ربَّ السَّماوات والأرض وما بينهما، ينبغي أن يكون الإله المتفرِّد بالألوهيَّة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وأنَّه سبحانه هو الذي ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾، وأنَّه سبحانه ربُّ النّاس جميعًا، السّابقين والحاضرين واللّاحقين[2].

فخصَّ الإحياء والإماتة بالذِّكر مِن بين الأفعال لأنَّهما أدلُّ على القدرة الكاملة مع الإشارة إلى دليل إمكان البعث[3].

والمشركون لا ينازعون في أنَّ الله هو المحيي والمميت، فكما استدلَّ عليهم بتفرُّده بإيجاد العوالم وما فيها استدلَّ عليهم بخلْق أعظم أحوال الموجودات، وهي حالة الحياة التي شُرِّف بها الإنسان عن موجودات العالَم الأرضيِّ، وكُرِّم أيضًا بإعطائها للحيوان لتسخيره لانتفاع الإنسان به بسببها، وبتفرُّده بالإماتة وهي سلب الحياة عن الحيِّ للدَّلالة على أنَّ الحياة ليست ذاتيَّة للحيِّ، ولمّا كان تفرُّده

(1) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 375، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 493.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 187.
(3) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 375.

بالإحياء والإماتة دليلًا واضحًا في أحوال المخاطَبين وفيما حولَهم مِن ظهور الأحياء بالولادة، والأموات بالوفاة يومًا فيومًا مِن شأنه أن لا يجهلوا دلالته بَلْهَ جحودهم إيّاها ومع ذلك قد عبدوا الأصنام التي لا تحيي ولا تميت؛ أعقب بإثبات ربوبيَّته للمخاطَبين تسجيلًا عليهم بجحد الأدلَّة وبكفران النِّعمة[1].

فقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾؛ أي: هو خالق العالم، فلا يجوز أن يُشرَك به غيرُه ممَّن لا يقدر على خَلْق شيء، فهو سبحانه يُحيي الأموات ويُميت الأحياء[2].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

الفصل لعلَّة كمال الاتِّصال، تعظيمًا للرَّبِّ ذي الجلال

الرّافع للباء من قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يجوز أن يكون على التَّبعيَّة: بدلاً، أو عطفَ بيان، أو نعتًا لقوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على قراءة الرَّفع فيه، ويجوز أن يكون الرَّفع على الابتداء، فيكون قوله: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ مبتدأ، والخبرُ قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ويجوز أن يكون الرَّفع على الخبريَّة، فيكون قوله: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ خبرًا بعد خبرٍ لقولِه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، أو خبرًا لمبتدأ مضمَرٍ؛ أي: هو ربُّكُم، ويجوز أن يكون الرَّفع على الفاعليَّة، فيكون قوله: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ فاعلًا لقولِه: (يُمِيتُ).

أمّا قوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ﴾ ففيه ضميرٌ يرجع إلى ما قبله؛ أي: يُحْيي هو؛ أي: ربُّ السَّماوات، وكان التَّقدير: ويُميتُ هو، فأوقَعَ الظّاهرَ موقع المضمَر، فقال: ﴿وَيُمِيتُ رَبُّكُمۡ﴾[3]، فعلى أيٍّ مِن التَّوجيهات السّابقة فإنَّ الفصل متعيِّن؛ لأنَّه مِن باب كمال الاتِّصال.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 129.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 618.

دلالة عطف قوله تعالى: (رَبِّ آبائِكُمُ) على ﴿رَبُّكُمْ﴾:

استيعاب الأوَّلين والآخرين، والتَّسجيل على المخاطَبين

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: هو ربُّ الجميع[1]، وإنَّما عطف قوله تعالى: (رَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلِينَ) على قوله سبحانه: ﴿رَبُّكُمْ﴾ ليسجِّل عليهم الإلزام بقولهم قبلُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: 22][2]؛ فلذلك خصَّ التَّربية بهم وبأسلافهم جريًا على سنن الخطاب، وتقريرًا لمزيد توخِّي شكر تلك الرَّحمة السَّنيَّة، وهذه النِّعمة الجليلة العليَّة[3].

نكتة التَّعبير بقوله: ﴿ءَابَآئِكُمُ﴾ ودلالة وصفه بـ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

أقام الله الحُجَّة على المشركين بالبيِّنات، وألزمهم بما كان لهم مِن مقالات

يُطلَق الأبُ في اللُّغة على الأبِ الأدنى (الوالد)، والأبِ الأعلى (الجَدِّ)، والعمِّ، كما في [البقرة: 133]؛ إذ سمَّى إبراهيم أبًا، وهو جَدٌّ ليعقوب، وسمَّى إسماعيل أبًا، وهو عَمٌّ ليعقوب، على رُسِل الله وأنبيائه جميعًا الصَّلاة والسَّلام، والمراد بالآباء في قوله تعالى: ﴿ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأجدادُ مجازًا، وخُصّوا بالذِّكر؛ لأنَّهم سببٌ لهم ولآبائهم بالذّات؛ فالامتنان بهم أمسُّ بالمقام[4]، ووُصِفوا بالأوَّلين؛ لأنَّ المخاطَبين جعلوا أقدم الآباء حجَّة أعظم مِن الآباء الأقربين، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: 24][5].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

المبين والواضح والظّاهر:

المُبِين هو الواضحُ بالبُعد أو الموضِّحُ بالفَصل والتَّمييز، والأصل في الظّاهر ظهرُ الإنسان

جذر الواضح يدلُّ على ظهور الشَّيء وبُروزِه[6]، وجذر الظّاهر:

(1) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد 5/ 279.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(3) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 200.
(4) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 375.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(6) ابن فارس، المقاييس: (وضح).

أصلٌ واحدٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبُروز، وانكشاف، ولذلك سُمِّيَ وقتُ الظُّهرِ والظَّهيرة، وهو أظهَر أوقات النَّهار وأضوؤُها، وتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ ما يدلُّ عليه الأصلان متقاربان، ولكنَّ الأصلَ في الظُّهور والظّاهر: ظَهرُ الإنسان، وهو خِلاف بطنه، وهو يجمع البُروزَ والقوَّة[1]، مع شدَّة وغلظ، كالظَّهر من الأرض (ما غلُظَ وارتفَع)[2].

أمّا جذر المبين: فهو بُعدُ الشَّيء وانكشافُه[3]، هو امتدادٌ بين طرفين أو جانبَين مع فصلٍ كبير أو اتساع[4]؛ كما يَرفع البِوانُ (هو عمود من أعمدة الخِباء)[5] سقْفَ الخباء فيفصله عن الأرض ويوسِّعه؛ ومن ذلك الفصل والتمييز جاء معنى الوضوح والظهور في تراكيب الجذر؛ لأنَّ المفصولَ المتميّز من غيره يلفت النَّظر[6].

ويتبيَّن ممّا سبق أنَّ المُبينَ يعني: الواضح بالبُعد أو الموضِّح بالفَصل والتَّمييز، لذا أوثِر في قول الله ﷻ: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ أي: البَيِّن لِمَن أُنزِلَ عليهم لكونِه بلُغتِهم وعلى أساليبهم[7]، وفي ذلك بُعدٌ عن الإبهام والإشكالِ واللَّبْس، أو الذي أبانَ طريقَ الهُدَى من طريقِ الضلالةِ وأبانَ كلَّ ما تحتاجُ إليه الأمَّة[8]، وفي ذلك فَصلٌ وتمييز.

الإنذار والتَّخويف:

الإنذارَ: تخويفٌ مع إعلام موضع المخافة، مِن: نذِرت بالشيء إذا علِمته فاستعددت له؛ فإذا خوَّفَ الإنسانُ غيرَه وأعلَمَه حالَ ما يخوِّفه به فقد أنذرَه، وإن لَم يُعلِمْه ذلك لم يقل أنذره[9].

الإنـذار تخويفٌ مع إعلام موضع المخافة

(1) ابن فارس، المقاييس: (ظهر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظهر).
(3) ابن فارس، المقاييس: (بين).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بون - بين).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (بون).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بون - بين).
(7) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 236، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 39، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 64.
(8) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 7، والبغوي، معالم التنزيل: 7/ 202، والزمخشري، الكشّاف: 4/ 236.
(9) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.

وتبيَّن ممّا سبق أنَّ في الإنذارِ إقامةَ الحُجَّةِ على النّاس؛ لأنَّ المُنذِرَ يُخبِرُ بأمرٍ فيه ضُرٌّ لِقَصدِ أنْ يتَّقيَه المخبَرُ به؛ ولذا أوثر لفظ الإنذار على التَّخويف في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، وفي آيات أُخَر، كما في سورة يونس الآية (2)، وسورة نوح الآية (1).

الفرق والفصل والفَلْق:

يُقضى في ليلة القدر من اللَّوح المحفوظ كلُّ ما هو كائنٌ في السَّنة

الفصلَ: لا يكون إلا ظاهرًا، أمّا الفرق فقد يكون ظاهرًا أو غير ظاهر[1]؛ ولذلك سُمِّي يوم القيامة يوم الفصل، لأنَّ الفصلَ بين الخلائق يظهر فيه، وأوثِرَ لفظُ الفرق دون الفصل في قول الله ﷻ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ لأنَّه يُقضَى ويُكتَب في هذه الليلة من اللَّوح المحفوظ كلُّ ما هو كائنٌ في السَّنة من الخير والشَّر والأرزاق والآجال، فيمشي الرَّجلُ في الأسواق وقد وقعَ اسمُه في الموتى[2]، فلا يُدرك ذلك إلا حين يُدركه الموت.

والفَرْقُ يقارب الفَلْق، لكنَّ الفَلْق: يقال اعتبارًا بالانشقاق، والفرق يقال اعتبارًا بالانفصال، وفَرَقْتُ بين الشَّيئين؛ أي: فصَلتُ بينهما، سواء كان ذلك بفَصلٍ يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ [المرسلات: 4]؛ يعني: الملائكة الذين يفصِلون بين الأشياء حسبما أمرهم الله تعالى، وعلى هذا قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[3].

الإرسال والبعث:

في الإرسال جديد، وفي البعث إحياءُ منهجٍ كان موجودًا سابقًا

الإرسال: يدلُّ على الانبعاث والامتداد[4]، والرِّسْل: الانبعاث على التؤدة، ومنه: الرسول المنبعث، وتصوّر منه تارة الرِّفق، فقيل: على

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 150.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 227، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 87، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.

(3) الراغب، المفردات: (فرق).

(4) ابن فارس، المقاييس: (رسل).

رِسلك، إذا أمرته بالرِّفق، وتارة الانبعاث؛ فاشتقّ منه الرَّسول[1]، وأصل البعث: هو الإثارة[2]، والتوجيه[3].

ويفترق الإرسالُ عن البعث بأنَّ الإرسالَ يكون بإرسالِ شيءٍ جديد؛ أي: برسالة جديدة، أو منهج جديد، أو تغيّر، أو تعديل في المنهج السابق، بحسب الزَّمان والمكان، أمّا البعث: فهو إحياء منهج كان موجودًا سابقًا، وغفل عنه النّاس، فإذا أراد الله ﷻ إحياء نفس المنهج الذي غفل عنه النّاس، بعث الله رسولًا أو نبيًّا لإحياء معالم ذلك المنهج السّابق الذي اندثر[4]، والإرسال: لا يصاحبه إثارة ولا تهييج ولا حثٌّ كما في البعث، أمّا البعث: فيصاحبه إثارة وحضٌّ وتهييج على القيام بالعمل، وحثٌّ عليه[5]، والإرسال: يكون من مكان إلى مكان، أو إلى مكان جديد، أمّا البعث فيكون إلى المكان نفسه، أو القرية نفسها، أو المدينة نفسها[6]، والنبيُّ ﷺ هو خاتم الرُّسلِ والأنبياء، ورسالته هي الرِّسالة الخاتمة، وهو ﷺ رحمةٌ للنّاس كافَّة[7]، ولِذا أوثِر لفظُ الإرسال دون البَعث في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

اليقين والتَّصديق:

مَنْ أيقنَ قد لا يُصَدِّق

التّصديق: قد يكون مؤخَّرًا عن الإيقان، ولا يكون الإيقان مستلزمًا للتصديق، كالذي شاهد المعجزة فيحصل له العلم اليقينيّ بأنه نبيّ، ومع ذلك لا يصدِّقه؛ فاليقين الضروريّ ربما يحصل ومع ذلك لا يحصل التَّصديق الاختياريّ[8].

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (رسل).
(2) ابن فارس، المقاييس: (بعث).
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بعث).
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/ 221.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/ 221.
(6) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/ 221، و222.
(7) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 229، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 193.
(8) أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص: 213.

والمشركون أيقنوا بأنَّ اللهَ ﷻ هو ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما، ولكنَّهم لم يصدِّقوا بعد إيقانِهم؛ لذا أوثِر لفظُ الإيقان دون التصديق في قول الله ﷻ: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وقد نزَّلهم الله ﷻ منزِلةَ المشكوكِ في إيقانِهم لعدَم جَريهم على موجِب الإيقان لله ﷻ بالخالقيَّة حين عبدوا غيرَه؛ فأُتِي بحرفِ الشَّرط ﴿إِن﴾ الذي أصلُه عدمُ الجَزْمِ بوقوعِ الشَّرط[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"